المقوّم السادس

حريّة الاختيار

حريّةُ الاختيارِ

إنّ أخطرَ شيءٍ في الدينِ هو العقيدةُ ، فإن صحّت صحّ العملُ ، وإن صحّ العملُ بلغَ الإنسانُ الأملَ ، وما من عقيدةٍ فاسدةٍ تشلُّ حركةَ الإنسانِ شلاًّ كاملاً ، وتجعلُه قاعداً مستسلماً لمصيرِه المحتومِ كعقيدةِ الجبرِ ، كأن يعتقدَ الإنسانُ أنّ اللهَ أجبرَه على كلّ أعمالِه ، وسوف يحاسبُه عليها ، مع أنه مجبَرٌ عليها ، كما قال الشاعر :

ألقاه في اليمِّ مكتوفاً وقال له : إيّاك إيّاك أن تبتلَّ بالماءِ

ومثلُ ذلك كما لو أنّ مديرَ مدرسةٍ جمعَ الطلابَ في أوّلِ يومٍ من أيامِ الدراسةِ ، وتلا عليهم أسماءَ الناجحين ، وأسماءَ الراسبين سلفاً ، ثمّ قال لهم : انطلقوا إلى الصفوفِ ، وادرسوا .

الأدلةُ على أنّ الإنسانَ مخيَّرٌ :

١ـ الدليلُ النقليُّ :

قال تعالى : ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟

بَأْسُنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام : ١٤٨] .

قال علماءُ التفسيرِ وعلماءُ العقيدة : « هذه الآيةُ أصلٌ في أنّ الإنسانَ مخيَّرٌ ، فمَن ادّعَى أنه مسيَّرٌ ، أو مكرَهٌ ، أو مجبَرٌ فقد التقى مع اعتقادِ المشركينِ » .

الخرصُ هو أشدُّ أنواعِ الكذبِ ، وهذا هو الكذبُ على اللهِ تعالى ، ويقول الإمامُ الغزالي : « لأنْ يرتكبَ العوامُّ الكبائرَ أهونُ مِن أن يقولوا على اللهِ ما لا يعلمون » .

بل إنّ اللهَ جل جلاله حين رتّبَ المعاصيَ ترتيباً تصاعدياً في آيةٍ من سورة الأعرافِ جعلَ أكبرَ معصيةٍ : ﴿ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف : ٣٣] .

وفي آيةٍ أخرى يقول تعالى : ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح : ٦] .

وقال سبحانه : ﴿ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ

﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران : ١٥٤] .

وقال في آيةٍ أخرى : ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان : ٣] .

وقال تعالى : ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ [الليل : ١٢] .

وقال تعالى : ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف : ٢٩] .

وقال تعالى : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت : ١٧] .

وقال تعالى : ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة : ١٤٨] .

توهّم بعضُهم أنّ الضميرَ ﴿هُوَ﴾ في قوله : ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ يعودُ على اللهِ ، ولو أَعَدْنَا هذا الضميرَ على اللهِ لفسدَ المعنى تماماً ، كأنْ تقولَ وأنت تركبُ السيارةَ لمَن يجلسُ في المقعدِ الخلفيِّ : اذهب إلى اليمين ، يقول لك : الأمرُ ليس بيدي ، المِقْوَدُ بيدك ، فإذا كان اللهُ عز وجل هو الذي يولِّيها ، فلماذا يقولُ إذاً : ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ ، فالضميرُ ﴿هُوَ﴾ يعودُ على الإنسانِ ، ولكنّ الإنسانَ أحياناً قد يشمُّ مِن بعضِ الآياتِ رائحةَ الجبرِ ، فبماذا نجيبُه ؟

هناك قاعدةٌ أصوليّةٌ قطعيةٌ ، وهي أنّ الآياتِ المتشابهاتِ مهما كَثُرتْ تُحمَلُ على الآياتِ المحكَمَاتِ مهما قَلَّتْ .

لنضربْ مثالاً على ذلك : لو قلتُ لك : القمحُ مادّةٌ خطيرةٌ ، فما معنى أنها خطيرةٌ ؟ هل معنى هذا أنّها متفجِّرةٌ ، أو أنها أساسيّةٌ في حياةِ الإنسانِ ، هذه كلمةٌ مبهمةٌ احتماليةٌ ، كلمةٌ فيها شبهةٌ ، قلتُ لك بعد قليلٍ : القمحُ مادّةٌ أساسيّةٌ في حياةِ الإنسانِ ، إذاً كلمةُ (خطيرة) نحملُها على أنها أساسيّةٌ ، فالآياتُ المتشابهاتُ مهما كَثُرَتْ تُحمَل على الآياتِ المحكماتِ مهما قَلَّتْ ، ولو أنّ في القرآنِ الكريمِ ألفَ آيةٍ يُشَمُّ منها رائحةُ الجبرِ فهذه كلُّها تحملُ على قولِه تعالى : ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾

[الأنعام : ١٤٨] .

لنأخذْ بعضَ هذه الآياتِ ، يقول تعالى : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [التكوير : ٢٩] .

فالمعنى هنا أنّ إرادةَ اللهِ شاءت أن تكونوا أصحابَ مشيئةٍ ، ولولا أنّ اللهَ شاء لكم أن تكونوا أصحابَ مشيئةٍ لمَا شئتم ، فإذا سعدتم بمشيئتكم ، وكانت هذه المشيئةُ سببَ رقيِّكم وسعادتِكم وفوزِكم فاعلموا أنّ هذه المشيئةَ من مشيئةِ اللهِ تعالى ، وليس

المعنى : ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ الجبرَ ، ولكنّ معناها الفضلُ ، وفرقٌ كبيرٌ بينهما .

آيةٌ أخرى ، قال تعالى : ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣] .

جعلَ اللهُ الإنسانَ المخلوقَ المكرمَ ، كرّمه بالاختيارِ ، وكرّمه بالعقلِ ، وكرّمه بالتشريعِ ، لذلك يكونُ المعنى في هذه الآية الأخيرةِ : لو شئنا أنْ نجبرَكم على شيءٍ ما ، وأن نلغيَ اختيارَكم ، ونلغيَ تكريمَكم ، ونلغيَ تفضيلَكم ، وهويتكم ، واختياركم ، وأردنا أنْ نجبرَكم لَمَا أجبرناكم إلاَ على الهدى ، لكنّ هذا الهدى الناتجَ عن الإكراهِ لا يُسعِدُ إطلاقاً ، ولا نرقى به إلى الجنةِ .

أما قولُه تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [المدثر : ٣١] فله معانٍ ثلاثة :

المعنى الأوّلُ : هذا هو الضلالُ الجزائيُّ المبنيُّ على ضلالٍ اختياريٍّ ، قال تعالى : ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف : ٥] .

المعنى الثاني : أنّ اللهَ أضلّه عن هذا الشريكِ ، حينما يعتمدُ الإنسانُ على جهةٍ أرضيةٍ يلهمُ ربُّنا عز وجل هذا الإنسانَ الذي اعتمدَ عليه أنْ يخيّبَ ظنَّه ، وبهذا يكونُ اللهُ قد أضلّه عن هذا الشريكِ ، ذلك أنّ هذا الشريكَ لو لبَّاهُ دائماً لألَّهه ، فلمجرّدِ أنْ تعتمدَ على جهةٍ غيرِ اللهِ عز وجل يخيّبُ اللهُ عز وجل ظنَّك بهذا الإنسانِ ، فتتألّمُ ،

فيكونُ اللهُ قد أضلَّك عن الشريكِ الذي جعلتَه نداً لله تعالى .

المعنى الثالثُ : أنّ الضلالَ الذي يُفهَمُ من هذه الآياتِ كما لو أنْ إنساناً سافرَ إلى بلدٍ ، وفي طريقِه إلى هذا البلدِ وجدَ طريقين ، فوقع في حيرةٍ ، أيّهما يسلك ، فسأل أحدَهم ، فقال له : مِن هذا الاتّجاهِ ، فقال له : أنت كاذبٌ ، في هذه الحالةِ لنْ يكونَ بإمكانِ هذا الرجلِ المسؤولِ أنْ يعطيَه معلوماتٍ إضافيةً عن هذا الطريقِ ، عن وجودِ حاجزٍ ، أو تحويلةٍ ، أو جسرٍ ، وما شابه ذلك ، لأنه رفضَ الطريقَ مِن أصلِه ، وعندما يرفضُ الإنسانُ الدينَ فإن الله تعالى يضلُّه ، فلا يستفيدُ من تفاصيلِ الدِّينِ ، ولو أنّ إنساناً رفضَ الجامعةَ مِن الأساسِ فلن يستفيدَ مِن مكتبتِها ، ولا من هويّتِه كطالبٍ ، ولا من حسمٍ في الطيرانِ ، وكلُّ الميزاتِ انتهت بالنسبةِ إليه .

٢ ـ الدليلُ العقليُّ :

وهو أنه لا يُعقَلُ ، ولا يصحُّ ، ولا يليقُ بكمالِ الله عز وجل أنْ يقولَ كلاماً لا معنى له ، قد يقولُ الإنسانُ كلاماً لا معنى له ، اضطراراً ، أو مجاملةً ، أو نفاقاً ، أو مداراةً ، أما خالقُ الكونِ فلا يُعقَلُ أن يقولَ كلاماً بلا معنى ، لو أنك تسيرُ في ممرٍّ ضيِّقٍ عَرضهُ كعرضِ كَتِفَيْكَ تماماً ، وقيل لك : اتّجِهْ نحوَ اليمينِ ، لكان هذا هراءً ، وكلاماً لا معنى له ، قال العلماء : « لمجرّدِ وجودِ الأمرِ والنهيِ فأنت مخيَّرٌ » ، ولو أنك مسيَّر فما معنى أنْ يأمرَك اللهُ أن

تكونَ صادقاً ، وما معنى أن ينهاك عن الكذبِ ، وما معنى أن يأمرَك بالصلاةِ ، وأن ينهاك عن الخمرِ والزنا ، إذاً لمجرّدِ الأمرِ والنهيِ فأنت مخيَّرٌ ، لذلك حينما جيءَ برجل شارب للخمر إلى سيدِنا عمر قال : « أقيموا عليه الحدَّ ، فقال الرجلُ : واللهِ يا أميرَ المؤمنين ، إن اللهَ قدَّرَ عليّ ذلك ، فقال سيدنا عمرُ : أقيموا عليه الحدَّ مرتين ، مرةً لأنه شربَ الخمرَ ، ومرّةً لأنه افترى على اللهِ ، ثم قال : ويحكَ يا هذا ، إنّ قضاءَ اللهِ لم يخرجك من الاختيارِ إلى الاضطرارِ » ، لذلك سئل سيّدُنا عليٌّ رضي الله عنه : « هل كان مسيرنا إلى الشامِ بقضاءٍ وقدرٍ فقال : لعلك ظننتَ قضاءً لازماً ، وقدراً حاتماً ، إذاً لبطلَ الوعدُ والوعيدُ ، ولانتفى الثوابُ والعقابُ ، إن اللهَ أمرَ عباده تخييراً ، ونهاهم تحذيراً ، وكلّفَ يسيراً ، ولم يكلف عسيراً ، وأعطى على القليل كثيراً ، ولم يُعصَ مغلوباً » .

يقول سيّدُنا الحسنُ : « لو أنّ اللهَ أجبرَ عبادَه على الطاعةِ لبطلَ الثوابُ ، ولو أجبرهم على المعصيةِ لبطلَ العقابُ ، ولو تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرةِ » .

فاللهُ سبحانه وتعالى أعطانا حريةَ الاختيارِ ليثمِّنَ عملَنا ، وإلا لمَا كان للعملِ الصالحِ قيمةٌ ، ولا للعملِ السيّىء قيمةٌ ، ولما حوسِبَ الإنسانُ على عملِه .

لو أنك أودعتَ طالباً في السجنِ أيامَ الامتحانِ ، ومنعتَه من أنْ

يقدِّمَ امتحانَه فرسبَ ، في هذه الحالةِ لا تستطيعُ أن توجِّه له توبيخاً ولوماً على رسوبِه ، كذلك لو أنك أعطيتَ الأسئلةَ لطالبٍ فنالَ الدرجةَ الأولى ، لا تستطيعُ أن تقيمَ له حفلاً ضخماً تكريماً لهذه الدرجةِ العالية ، دائماً وأبداً الدليلُ النقليُّ لا يتعارضُ مع الدليلِ العقليِّ ، لأن النقلَ كلامُه ، والعقلَ مقياسُه ، والواقعَ خَلْقُه ، والفطرةَ جِبِلَّتُه ، ولأنّ الحقَّ ما جاء به النقلُ الصحيحُ ، وتوافقَ مع العقلِ الصريحِ ، ومع الفطرةِ السليمةِ ، ومع الواقعِ الموضوعيِّ .

* * *

مسائلُ مهمّةٌ في التخييرِ

المسألةُ الأولى :

إنّ الإنسانَ مخيَّرٌ فيما كُلِّفَ به ، ومسيَّرٌ فيما لم يكلَّفْ به ، وهذا التسييرُ في صالحِه .

هناك مجموعةٌ من الأمورِ لا يدَ للإنسانِ فيها ، ولا اختيارَ ، ومن أمثلتها :

١ ـ الأم والأب : فيمكنُ أن يكونَ الإنسانُ ابناً لثريٍّ يقدِّم له كلَّ ما يطلبه ، ويمكنُ أن يكونَ ابناً لفقيرٍ لا يجدُ قوتَ يومِه .

٢ ـ العصرُ الذي وُلِدَ فيه : فهناك إنسانٌ ابنُ الثلاثينيّاتِ ، وهناك ابُن الخمسينيّاتِ ، وهناك مَن عاش في العصورِ الوسطى ، ومَن سيأتي في عصرٍ لاحقٍ ، فالعصرُ لا يملكُه الإنسانُ ، ولكنه مقدَّرٌ له مِن اللهِ تعالى .

٣ ـ البيئةُ ومكانُ الولادةِ : فهناك من وُلِدَ في بلادِ العربِ ، وعاش فيها ، وهناك من وُلِدَ في بلادِ الغربِ أو غيرها ، وكلُّ هذا لا يملكه الإنسانُ .

٤ ـ القدراتُ العامّةُ : فهذا قامته طويلةٌ ، وذاك أقلُّ طولاً ، وهذا لونُ بشرتِه أبيضُ ، وذاك أسودُ ، وكلٌّ هذا مِن اللهِ تعالى .

إلاّ أن الحقيقةَ التي يجبُ ألاّ تغيبَ عن أذهاننا أبداً هي ما قاله الإمامُ الغزاليّ : « ليس في الإمكانِ أبدعُ مما كان » ، فهذا الذي لا خيارَ لنا فيه إنما هو في صالحِنا ، ولكنّ الإنسانَ يعرفُ هذا يومَ القيامةِ حين تُكشَفُ له الحقائقُ ، فلا يملكُ إلاّ أنْ يقولَ كلمة واحدة : « الحمدُ للهِ ربِّ العالمين » ، يحمد اللهَ على أنه وُلِدَ من هذا الأبِ وتلك الأمِّ ، وفي هذا الزمانِ والمكانِ ، وبهذه الخصائصِ والقدراتِ التي منحَها اللهُ إيّاه ، بما يتناسبُ مع أداءِ مهمّتِه المنوطةِ به .

الإنسانُ مسيَّرٌ في الأساسِ فيما لا علاقةَ له بالتكليفِ ، وبما يحقِّقُ مصالحَه ، ثم هو مخيَّرٌ فيما كُلِّفَ به ، يختارُ أيّ الطريقين شاء .

المسألةُ الثانيةُ :

الإنسانُ مسيَّرٌ في الأساسِ ، ثم هو مخيَّرٌ ، ثم هو مسيَّرٌ ، فالتسييرُ لا يتناقضُ مع الاختيارِ ، بل هما يتكاملان .

الإنسانُ مسيَّرٌ في الأمورِ التي سبَق ذكرها ، (أمُّه ، وأبوه ، وزمانُ ومكانُ ولادتِه ، وقدراتُه العامّةُ ، وشكلُه ، وما إلى هنالك) ، ثم هو مخيَّرٌ في أن يطيعَ اللهَ ، أو يعصيَه ، في أن يسلكَ

طريقَ الحقِّ والخيرِ ، أو طريقَ الشرّ والباطل ، بعد ذلك يسيَّرُ الإنسانُ مِن قِبَلِ اللهِ تعالى لتحقيقِ اختيارِه ، فيكافأُ إن اختارَ الخيرَ ، ويدفعُ ثمنَ اختيارِه إن اختارَ الشرَّ .

فالإنسانُ مخيَّرٌ مثلاً في طريقةِ كسبِ المالِ ، فإن اختارَ الطريقَ المشروعَ يُسيرُ لكسبِ مالِه بالطرقِ المشروعةِ ، وإن اختارَ طريقَ السرقةِ مثلاً ، ولم يستجبْ لربِّه ، ولا لنداءِ عقله وفطرته ، وأصرّ على موقفه فإنّ اللهَ عز وجل يسيِّره ليدفعَ ثمنَ اختياره بما يتوافقُ مع الحكمةِ المطلقةِ لربّ العالمين ، ليظهرَ خبايا نفسِه ، ولتقومَ عليه الحجّةُ ، وبما أنّ خطةَ اللهِ تستوعبُ خطةَ الكافرِ بما يتوافقُ مع مشيئةِ اللهِ فإنّ هذا الإنسانَ المصرَّ على السرقةِ يسيرُ ليسرقَ من حيثُ سمحَ اللهُ له أن يسرق ، وفي الزمانِ الذي يسمحُ اللهُ فيه ، تحقيقاً لحكمةِ الله جل جلاله ، إذ إنه لا يقعُ شيءٌ في مُلكِ اللهِ دونَ أن يسمحَ به .

المسألةُ الثالثةُ :

الإنسانُ مخيَّرٌ ، ولكنّ الفعلَ فعلُ اللهِ تعالى .

مثال ذلك : لو أنّ طالباً لم ينجحْ في الامتحانِ ، فصدرَ قرارُ رسوبِه من إدارةِ المدرسةِ ، فلو قلنا : إن الطالبَ قد رسب فالكلامُ صحيحٌ ، ولو قلنا : إنّ الإدارةَ قد رسّبت الطالبَ فالكلامُ صحيحٌ ، فهو قد رسبَ سبباً ، والمديرُ رسّبه تنفيذاً .

والنتيجةُ أنه لا تناقضَ أبداً بين اختيارِ الإنسانِ ، وكونِ الأفعالِ مِن اللهِ تعالى ، فإرادةُ الله تعني أنه سمحَ للإنسانِ أن يفعلَ ما يشاء ، لأنه مخيَّرٌ ، واللهُ تعالى يتولّى إمدادَه بالقوةِ التي يحرِّرُ فيها اختيارَه .

قال تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

فالإنسانُ يكسبُ الطاعةَ ، أو يكتسبُ المعصيةَ ، أما الفعلُ فهو فعلُ اللهِ عز وجل ، فحينما يريدُ الإنسانُ الحقَّ والخيرَ يدلُّه اللهُ عليه ، ويعينُه عليه ، وحينما يصرُّ على المعصيةِ يسمحُ اللهُ له بإظهارِ ما في نفسِه ، لأنه مخيَّرٌ .

إنّ قضيةَ التخييرِ والتسييرِ ، والهدايةِ والإضلالِ تتطلّبُ دراسةً واعيةً ، لأنها تتعلّقُ بالعقيدةِ ، ولأنّ العقيدةَ تنعكسُ سلوكاً يمكن أن يرقى بصاحبِه إلى أعلى علِّيين ، أو يهبطَ به إلى أسفلِ سافلين ، وكثيرٌ من الناسِ يعتقدون بالجبرِ الذي يشلّ حركةَ الإنسانِ ، فيتوقفون عن العملِ منتظرين مصيرَهم المحتومَ ، مع أنّ الأدلةَ واضحةٌ على أنّ الإنسانَ مخيَّرٌ ، وأن العملَ لا قيمةَ له دونَ تخييرٍ ، فلو أنك أجبرتَ إنساناً على أن يعطيَك هديةً فهذه لا تسمَّى هديةً ، وإنما تسمّى اغتصاباً ، فقيمةُ الهديّةِ تأتي من أنها قُدِّمَتْ اختياراً .

* * *